صحائف مطوية في السياسة العربية :

هاشم الأتاسي

في سنة ١٩٣٩ وفي عام ١٩٤٣

للأستاذ أحمد رمزي بك

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

لقد رأيت في العدد الماضي وطنية هاشم الأتاسي تتجلى أمام الفرنسيين حينما اعتزل الحكم بإرادته ، وقد أعجبت بهذا الموقف وقلت إنه يندر أن نجد الكثيرين من أمثاله في القرن العشرين وسط المشتغلين بالمسائل العامة في هذا الشرق ، وسأقص عليك في هذه الكلمة شيئاً من تردد السلطات الفرنسية ، وما ذا كان جزاء وطنيته وإخلاصه من بعض أولئك الذين فرض من المبدأ أن يكونوا من معاونيه وأنصاره ، فإذا هم الذين عناهم أبو الطيب بقوله:

كدعواك كل يدعي صحة العقل

ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل

ولقد أشرت في الكلمة السابقة إلى مذكرات رجال السياسة والحكم التي نشرت بمختلف اللغات ، وكيف يحتاج إليها مثلي للوصول إلى ضبط الكثير من الحقائق ، ومن قبيل هذه المذكرات أو أهمها مذكرات الجنرال كاترو ، فقد أبلغني صديق كريم أن الجنرال بدأ ينشرها في جريدة الفيجارو الفرنسية ، وكان يودي أن أطلع عليها قبل كتابة هذه الكلمة ، فلم أستطع الحصول عليها كاملة بمصر ، وعليه قُدِّر عليَّ أن أنتظر حتى يتم طبعها كاملة كما قيل لي ، فأبدي رأيي فيها كقارئ ، أو كرجل لمس عن قرب شيئاً من الحوادث التي تناولها هذه المذكرات .

ولقد أشرت إلى تعدد مقابلاتي مع الجنرال طول شهر مارس ١٩٤٣ وكان أعلنها في دمشق التي كان يفضل الإقامة فيها ، بل وصرح مراراً أنه يعمل على نقل المفوضية العليا الفرنسية من بيروت إليها ، وأعتقد أنه لولا ما صادف كاترو من اعتراضات معينة من بعض الفرنسيين الذين يعملون معه ، ولولا تأثير الوسط البيروتي لنجح في قصده هذا مدة وجوده بسوريا ولبنان على الأقل .

واذكر في إحدى هذه المرات التي قابلته فيها بحديقة دمشق وكان قد دعاني إلى قصر المفوضية بالمهاجرين ، فتعمد أن يضع على المدخل مغربة من حرس الفرقة الجركسية لتحية ضيوفه ، على مثل ما كان يعمل الجنرال فيجان ، ولما قابلته أخذ يطوف بي في أنحاء الدار ويشرح لي محتوياتها ويشير بإعجاب إلى ما بذلته مدام كاترو في تهيئة حجراتها والحصول على الأثاث اللائق بها وكيف وفقت رغم ما يعترضها من صعاب في تنسيق الدار وجعلها صالحة لإقامة مندوب فرنسا الأعلى وقائد جيوشها .

والحقيقة أن الدار ظهر عليها في ردهاتها ومقاعدها وأركانها هذا الذوق الشامل الذي تفرغه يد السيدة إذا توات بمنابتها تهيئة الدور الرسمية فتجعل منها بيوتاً تصلح للاستقبال .

لقد كان الجنرال مرحاً في كلامه مع المدعوين ، ولما آن موعد انصرافهم أراد أن يتحدث حديثاً خاصاً معي فاستبقاني لديه على انفراد ، والجنرال تحدث أين بدأ حديثه عن القاهرة وعن منزل في لبنان لشخص معين يسكن بيروت ويريد أن يؤجره للجنرال ومع ذلك يزج بأسماء معينة في مصر وضحك كثيراً من أساليب بعض الناس في حياتهم الخاصة والعامة ، والحقيقة أن ابتداء الحديث السياسي عن صفقة فيها منزل للإيجار تحمل في ثناياها نكتة من أبداع النكت ، وفي كلامه عن خلق هذا الوجيه الثري ما يجعل السامع يتجه اتجاهاً سيئاً نحو حكمه على كثير من الأمور ، ولولا أن منافسة الجنرال من كبار القوم في بلادنا لما بدا أن لهذا الحديث موضعاً ، ولكن الجمع بين هذا ووضعه في الإطار الذي فتح الجنرال حديثه به يجعلني في حل أن أقول : أن الجنرال أعطى صورة واضحة لما كان يدور في تلك الأيام وأراد بظرف ولباقة أن يعرفني بالإشارة كما يقولون ما لم يرد أن يصرح به . ولكنه حينما تحدث عن هاشم بك الأتاسي : أشاد بوطنيته وإخلاصه لبلاده وقال : « أنه على رأيه دائماً في أن قيام الدولة السورية وعلى رأسها هاشم بك أمر يرحب به ويكون من نفوره إذا تم » .

إننا معاشر الشرقيين تبدو لنا بعض الأمور وكأنها لا تستحق عنايتنا واهتمامنا : كما تبدو لنا أمور أخرى ذات أهمية خاصة مع أنها قد لا تترك أثراً لدى الغير ، من قبيل هذا اعتزال هاشم بك للحكم فالأثر الذي يتركه في نفس الأوروبيين لا ينسى ، وقد حدثني الجنرال فقال إنه دعى هاشم بك للغداء لديه وعلم إنه نزل في فندق أوربات بالأمس ولما انتشر خبر زيارته لدمشق تهافت الناس وذهبوا لرؤيته بالفندق وتحادثوا معه وأعربوا عن آمالهم في عودته ... فهو رجل يتمتع بمنزلة خاصة لدى الشعب .

ذكر لي هذا عند كلامه عما يدور بخلده من ضرورة إبدال

الوضع الذى قام مؤقتاً فى سوريا عقب وفاة المغفور له الشيخ تاج الدين الحسنى . ولكنى لست هذا الإنصاف لهاشم بك فى صفوف الفرنسيين من أعداء الكتلة الوطنية نفسها .

وفى هذا الاجتماع الأخير لخص الجنرال ما قام به من جهود فى الفترة الأولى لشهر مارس ١٩٤٣ فقال إن دائرة أحاديثه اتسعت رويداً رويداً فشملت عدداً من السياسيين الممثلين لمختلف الأحزاب والدوائر فى سوريا وأبدى رأيه فى كل شخص وفى اتجاهات الأحزاب وتساوبها وتنافسها ، وقد اطلعت بعد أيام على ما نشرته المفوضية على الصحف وقد أشارت إلى أن الجنرال يوالى استشاراته ويستمع إلى رؤساء الوزارات ورؤساء المجالس النيابية فى الأحداث والأوضاع والحلول القبلة — وزادت على ماسمعنا رؤساء الهيئات الاقتصادية والمالية وهذا مالم يرد له ذكر فى أحاديثه .

ولم يقتصر اتصاله على دمشق بل سافر إلى حلب وحمص ودعا إليه رؤساء العشائر والمناطق البعيدة وكان طول مدة شهر مارس فى عمل مستمر واتصال دائم وكلما تعجلت السياسة البريطانية أو الأمريكية الأمور كان رد الفرنسيين أننا ندرس ونبحث ونستشير ونحقق حتى يأتى عملنا مطابقاً للمصلحة العامة ولكسب الحرب.

كتبت فى كتاب الاستعمار الفرنسى فى شمال أفريقيا ص١٧ « أن الجنرال كاترو يجمع فى شخصه بين القائد والسياسى معاً وقد برهن على أنه صاحب مزعة ودهاء ، وفكرة ومقدرة » ص٧٧ وأزيد على هذا أنه حدث من الدرجة الأولى لا تغادر الابتسامة وجهه ، وهو يشعرك من أول مقابلة أنك موضع ثقته وأنه يحدثك بصراحة تامة وهو لن يخفى عنك شيئاً مما يجول بنفسه ولكنه فى الحقيقة إذا تكلم لا يعطيك إلا ما يريد هو إعطاءه .

وإذا عرض لشخصيات سيئة أعطاك من كل واحدة منها صورة حية لا تكرهك فى الشخص المعين ، بل يرسم لك مزاياه فتخرج وتكاد تشعر بأن جميع الناس من أصدقائه وأنه معجب بالنواحى الطيبة التى لمسها فى كل واحد منهم .

ولا أخفى على القارئ أن الجنرال كاترو ترك أثر عميقاً فى نفوس من اتصلوا به ، فقد جاءنى رجال لم يكونوا فى يوم من الأيام من أصدقاء فرنسا ، وأبدوا لى دهشتهم لهذا التطور الذى بدا من غير تهيئة فى جانب الفرنسيين حتى صرح أحدهم يقول : أنه يكاد يصدق أن هذا الجنرال راغب كل الرغبة فى أن يرى البلاد السورية متمتعة باستقلالها .

وقد ظهر لى جلياً أن الجنرال كاترو كان من بين الفرنسيين القلائل الذين أدركوا قبل الأوان ضعوبة مركز فرنسا فى سوريا ولبنان مع وجود الجيوش البريطانية فيها ، وكان هناك فريق منهم يعيش سنوات ١٩٤٣ — ٤٤ — ١٩٤٥ على غرار ١٨ — ٢٠ ١٩٢١ حينما وجدوا البريطانيين قبلهم فى البلاد : وجاء كاترو فكان بين أمرين .

١ — أما التظاهر بالتعاون مع الحليفة إلى نهاية الشوط .

٢ — وأما التصادم من المبدأ معها

وقد فضل أن يجاريها فى سياستها وأساليبها مع احتفاظه بحقوق بلاده ، ولكنه لم يجد إخلاصاً ولا تعاوناً ولا فهماً من معاونيه ، ولذلك لم يلازمه النجاح الذى كان من المرجح أن يلاقيه

كنا ننتظر الوصول إلى نتائج حاسمة فى النصف الأول من شهر ما حينما جاء المولد النبوى الكريم فاضطر الجنرال الفرنسى إلى قطع استشاراته لحضور الاحتفال به فى بيروت ، حيث أقيمت احتفالات رأى فيها المسلمون فرصة للاعراب عن وجودهم ، ورأت فيه فرنسا فرصة لإعلان احترامها للنبى العربى .

ثم حدث تصادم لطائرة فرنسية مات فيها الكولونيل باريل وجرح فيها الجنرال ماسيت ، وقد أقيمت جنازة عسكرية شائقة للفقيد الفرنسى وسارت فيها وحدات الجيوش الفرنسية المختلفة وقد تسلمت الكثير من عتاد الحلفاء وملابسهم وأحذيتهم وألقى الجنرال كاترو قطعة رائعة فى رثاء الكولونيل القتيل وكانت خير ما يمكن أن يعبر عن حداد فرنسا المقاتلة — وآمالها .

لا أدرى إذا كانت بعض المعاهدات تؤثر فى اتجاهات معينة وعلى كل فإنه بقدر تحمس الفرنسيين للوصول إلى هاشم بك فى تلك الفترة بقدر ماقامت الصعاب أمامه من ناحيتين : الطريقة التى سيعود بها إلى الرياسة هل تكون بناء على دعوة الجنرال وكيف تصاغ ثم الناحية الثانية : وهى ازدياد شقة الخلاف بينه وبين أنصاره .

ومرت الأيام وكان الجنرال قد ترك دمشق وعاد إلى بيروت تاركاً أمر المشاورات فى سوريا لمعاونيه : ثم عاد فى الفترة الأخيرة من مارس إليها .

وفى يوم ٢٤ مارس سنة ١٩٤٣ تلقيت منه كتاباً مطولاً يعرب فيه عن أسفه لأنه لم يوفق إلى إقناع هاشم بك الأتاسى بالعودة إلى وزارة الجمهورية مرة أخرى ويبلغنى فيه ما استقر عليه الرأى فى النظام الجديد الذى سيباشر التمهيد للانتخابات .

والحقيقة إننا جميعاً دهشنا لهذا الموقف الأخير ، وقد سافرت